

## الباب الثالث

### الحق في مجال التربية وإعداد النفوس

الفصل الأول :

\* فيما قصه الله من أنباء الرسل عليهم السلام.

الفصل الثاني :

\* فيما قصه الله من أنباء السابقين.

الفصل الثالث :

\* في ضرب الأمثال.



## الفصل الأول

\* فيما قصه الله من انباء الرسل عليهم السلام.

### الآيات

- ١ - ﴿ إِنَّ هَذَا هُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾  
(آل عمران: ٦٢)
- ٢ - ﴿ وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَ كُفْرًا فِي هَذِهِ الْحَقِّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (هود: ١٢٠)
- ٣ - ﴿ وَرَفَعَ أَبُوبِهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلْنَا رُبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾  
(يوسف: ١٠٠)
- ٤ - ﴿ طَسَمَ ۖ تِلْكَ آيَاتُ الْكِنَانِ الْمُبِينِ ۖ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾  
(القصص: ١-٣)

قد يتبادر إلى الأذهان لماذا خصصت ما جاء في هذا الباب بهذا العنوان مع أن القرآن الكريم كله لإعداد النفوس وتربيتها أو قل لهدايتها وتبصرتها؟ قلت هو كذلك. وقد التمسست عنوان هذا الباب من إشارات القرآن الكريم في مثل قوله: ﴿وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك﴾.

نعم القرآن كله لهداية النفوس وتبصرتها. لكنك ترى نفوساً قد تستجيب للحق وتؤمن به وتدعو إليه. وهذه لها من الخطاب والتوجيه ما يشبها ويقوها. وهي تواجه بدعوة الحق باطل عصرها وزمنها وتجاهه مؤامرات المفسدين بالإصلاح وصدق اليقين. هذه النفوس تفيد من القرآن كله ولكنها تجد عزاءها وراحته فيما تقرأ من أحوال السابقين. فمن جابه فرعون عصره يثبت قلبه أن يرى ما وقع لفرعون السابقين وما تم من مؤازرة ونصر للمؤمنين. ومن ألمَّ به الخوف لضعف عدد أو عتاد اعتصم بالله وأخذ في الأسباب لنصرة الحق دون يأس أو قنوط وهو يقرأ ما أَرَادَهُ اللهُ للمستضعفين:

﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ  
وَنَجْعَلَهُمْ آيَةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنَمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾

(القصص: ٦٠٥)

فما أذكره في هذا الباب له في تربية النفوس المؤمنة وتثبيتها أثر كبير وهي ترى سنن الله في خلقه وتبصر النتائج للمحقين والمبطلين وتعقل الأمثال وما يعقلها إلا العاملون.

﴿ إن هذا هو القصص الحق ﴾. والإشارة إلى الذي قصه الله على رسوله صلى الله عليه وسلم من نبأ عيسى ﴿هُوَ﴾ ضمير فصل للحصر ودخول اللام عليه لزيادة تأكيده. وهو يفيد أن ما ذكره في شأن عيسى هو الحق دون ما ذكره النصارى. ولذا رد عليهم بقوله: ﴿وما من إله إلا الله﴾. وهذا هو الحق الذي لا محيد عنه.

وقد جاء بـ « مِنْ » لإفادة الإستغراق تأكيداً للرد على النصارى في قولهم ﴿إن الله ثالث ثلاثة﴾. ﴿وإن الله هو العزيز الحكيم﴾. فلا أحد يساويه في القدرة التامة والحكمة البالغة ليشركه في الألوهية. ﴿فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين﴾. وعيد

لهم . ووضع المظهر موضع المضمير ليدل على أن التولى عن الحجج والإعراض عن التوحيد إفساد للدين والاعتقاد المؤدى إلى فساد النفس بل إلى فساد العالم<sup>(١)</sup> .

والحق أن الفساد في الأرض لا ينشأ إلا من الحيدة عن الإعراف بهذه الحقيقة ﴿ لا إله إلا هو ﴾ . وما رأيت شيئاً يدمر حياة الناس ويشيع في الأرض الفساد كالشرك بالله . إنه منشأ كل شر وأصل كل فساد وهو مناف لفطرة الخلق التي فطر الله الناس عليها . والتعلق به تعلق بكذب يهوى إلى النار وباطل يقود إلى الدمار :

﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَظَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ

تَهَوَّى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ (الحج : ٣١)

﴿ إن هذا هو القصص الحق ﴾ . والإشارة كما قلت إلى ما قصه الله في شأن عيسى عليه السلام أي أن ما قصه الله علينا في شأنه هو الحق فلا يلتفت إلى ما يخالفه أو يناقضه .

وفي مجال التربية وإصلاح النفوس على الناس أن يركزوا أولاً على العقيدة حتى يستقيم لهم السعي والسلوك . فإن الأعمال لا تقبل وتؤدي ثمارها إلا بسلامتها . ﴿ وأهديك إلى ربك فتحشى ﴾ . وكل تربية تهمل هذا الجانب تقيم بنائها على شفا جُرفٍ هارٍ لا يلبث أن ينهار بأهله إلى الدمار والبوار . ولذا رأينا القرآن الكريم يبين لنا في إفاضة وتفصيل قضية الألوهية بأدلتها كما بين لنا أن الرسل جميعاً إنما بعثوا دعاة إلى عبادة الله وحده وعدم الإشراك به :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ

إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (الأنبياء : ٢٥)

ليقطع السبل على كل مدع عليهم مسند إليهم ما لم يقولوه . ومن ينظر في السورة

(١) تفسير البيضاوى .

التي ورد فيها قوله تعالى ﴿إِنْ هَذَا هُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ . يرى أن القرآن الكريم قد بين حقيقة عيسى وولادته ونشأته كما بين ولادة امه من قبل وكفالة زكريا لها في حديث يرى المتدبر فيه آثار قدرة الله في خلقه ورحمته بهم واختيار من يختار لحمل الرسالة وأداء الأمانة وهم جميعا خلقه وعباده .

ولا غرابة أن يولد عيسى من غير أب . فان آدم من قبل قد خلُق من غير أب ولا أم :

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ

قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾

(آل عمران : ٥٩)

هذا هو الحق ومن جادل فيه فليأت إلى المباهلة . وهذا ما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم مع وفد نجران حين جادلوا في أمر عيسى . دعاهم إلى المباهلة كما أمره الله عز وجل :

﴿ فَمَنْ حَاجَبَكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ  
أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ  
ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾

(آل عمران : ٦١)

﴿إِنْ هَذَا هُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ . هكذا في ثقة وطمأنينة يثبت الحق ويعلو ويواجه من يخاصمه بسلطانه في حجته وقوته فلا يبقى لمعاند عذر ولا لمبطل حجة . ولذا جاء الإعلام بعد هذا أن من مال عن هذا الحق أو تولى عنه فهو مفسد والله عليم به يجازيه ويأخذه أخذ عزيز مقتدر :

﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾

(آل عمران : ٦٣)

وهل من انصاف يرجى في معاملة الخلق وإصلاحهم أكمل وأبر وأصدق من هذا  
الإنصاف الذى يحمله هذا النداء :

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ  
أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا  
بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا

مُسْلِمُونَ ﴿ (آل عمران : ٦٤)

إنه نداء يأتي بعد بيان ما هم عليه من قضية الالهية . وهو نداء بار رحيم يدعو  
إلى الإنصاف فى ثقة وإلى اتباع الحق فى ثبات وإلى عبادة الله فى غير ميل عن الحق أو  
إشراك وإلى مساواة الناس فى أصلهم ونشأتهم ومصيرهم حتى لا يبغي أحد على أحد  
ولا يكون ذلك إلا بمعرفة أنفسهم وخالفهم وخضوعهم له جميعا بالعبادة والطاعة .

وهذا النداء يُتلى صباح مساء على الناس جميعا ويتردد على سمعهم يعلن الحق .  
ويقذف به فى وجوه الضالين ليردهم إلى الحق ويعصمهم من الفساد .

والتدبر فى هذا القصص القرآنى المستجيب لنداء الحق يقشعر جلده ويلين قلبه  
وهو يجد نفسه أمام كلمة سواء لا تفتح بابا لطاغ أو مستبد أو راغب فى علو أو فساد  
فى الأرض : ﴿ ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ﴾ .

ان العناية بأمر العقيدة على هذا النحو عناية بتربية الانسان بالمنهج والسلوك لأن  
المنهج بغير عقيدة باطل وإن صح والسلوك بغير غاية مضيع وإن استقام . ومن أراد  
الإصلاح فعليه أن يعنى بالاعتقاد حتى تعز النفس وتسلم من لوثة الشرك وما يؤدى  
إليه من توزع النفس وتمزقها بين سبل الباطل وآلهته . ان الخشية من الله نتاج معرفته  
ومعرفة الله حق معرفته تتوقف على التزام ما جاء به الوحي وبعث الله به الرسل . وقيمة  
الانسان وتميزه عن غيره فى الإيمان بالغيب ولا مجال فى الغيب لظن أو تخمين وإنما هو  
الصدق واليقين . والله لا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول .

ومن رحمة الله بخلقه أن جعل من آياته في المنظور المشاهد في الآفاق وفي الانفس ما يدل على الحق في أمر الغيب مما أخبرنا به ودعينا إلى تصديقه والإيمان به . وقيمة الإنسان كما قلت في هذا الايمان لا في علمه بظواهر الحياة من أسباب متاعه ومعاشه . فان أبسط المخلوقات يقدر على ذلك ، وربما كانت قدرته وتديره - بإلهام الله - أقوى من تدبير الانسان . وسبحان من ﴿ أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾ .

وتدبر ذلك - إن شئت - في أمر النحل أو النمل أو الاسماك أو الطيور . وكم تعلم الإنسان من أمرها ما هو به فخور .

فالسماك يسبح في ظلمات البحر مسافات لغاية يحققها يعرف طريقها ويعرف كيف يعود . والطيور تهاجر إلى أماكن بعيدة وتدرك بها ألهما الله مواطن الأخطار وتقلبات الرياح فتحتاط لنفسها وتسلك الطريق الآمن لسيرها أو تتوقف حتى تثبت وتطمئن . كل ذلك وغيره تفعله هذه المخلوقات وهي ميسرة لما خلقت له . والانسان وهو مكرم ومفضل على كثير . يعلى قيمته ويرفع قدرة إيمانه بالغيب وقد زود بها يحقق له ذلك ويصل به من المقدمات إلى النتائج . فتلك ميزة انسانيته وهو يخاطب بالآيات وموطن سموه ودلالة فضله .

والحديث عن عيسى عليه السلام وامه وحقيقة أمره وما دعا اليه حديث عن غيب مضى . فمن قبل فيه كلمة الوحي كما جاءت من عند الله فقد سلم من ضروب الجهل وسبل الهوى . ومن أبى إلا أن يتخبط في الحديث عن الغيب بمحض هواه عناداً واستكباراً فقد قال على الله غير الحق وسلك طريقاً لا برهان له به ولا حجة من نقل أو عقل . وأى عذر للخلق بعد بيان الحق . وأى جهل يُعذرُ به هؤلاء من بعد ما جاءتهم البينات . إن لكل معرفة بابها وسبيلها . وسبيل معرفتنا وايماننا بالغيب هو الوحي . وقد حفظه الله أمام أعيننا لتبقى الحقيقة أمام الناس ناصعة لا لبس فيها ولا خفاء .

والتريبة الصحيحة تأتي أن تختلط أو تلتبس وسائل علمنا ومعرفتنا فما كان من أمر الغيب علينا أن نقف فيه عند ما جاءنا به الرسل وأن نسمع ونطيع . وما كان من شئون

دنيانا فنحن مزودون بحواس تعيننا على أن نفيد بما خلق الله لنا وسخر. وليس معنى هذا أن نسلم عقولنا دون تفكر أو تدبر فهذا ما لا يرضاه الدين أو يقبله الرسل عليهم السلام. وهو مناف لحقيقة المعرفة وما أمرنا به من قبل الله عز وجل:

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَحْدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ شَىْءٍ وَفِرَادَىٰ تُمَّ  
تَتَفَكَّرُوا ﴾

(سبأ: ٤٦)

وإذا تفكرنا فيما جاءنا به الوحي. ونظرنا فيما ألفت به الأهواء. وجدنا العقل يعود مع الوحي مؤمنا أنه «لا إله إلا هو». وقد سلمت له الحجة والبرهان وغنم بالطمأنينة واليقين. ورأيناه مع ما ألفت به الأهواء كثيلا لا حجة معه ولا برهان فأى الأمرين أسلم للنفس. سبيل نرى فيه منارات الهدى. أم سبيل لا ترى فيها إلا ظلاما يموج في ظلام.

﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ  
فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾

(الأنعام: ١٥٣)

﴿ إن هذا هو القصد الحق وما من إله إلا الله وإن الله هو العزيز الحكيم ﴾.

ان ما قصه الله علينا من أنباء الرسل هو الحق. والحق جدير أن يتبع. والتربية التي لا تقوم على الحق لا يستقيم بها سعى ولا يظهر سلوك. والرسل وهم صفوة الخلق لا بد أن تعرف رسالتهم وتحفظ سيرتهم لتحسن القدوة بهم وتبقى للأجيال كلها عبرة لأولى الألباب وموعظة وذكرى للمؤمنين.

﴿ وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَحْنُ بِمُتَّبِعِيهِ فَوَادَكَ

وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (هود: ١٢٠)

وهذه الآية من خواتيم سورة «هود». وقد قص الله فيها على نبيه من أنباء الرسل نوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وشعيب، وموسى ما قص. وما جاء في

قصص القرآن هو الحق الذي لا مرية فيه ومنه تعرف سنن الله في خلقه . ويُدرك كلُّ داع إلى الله في أى عصر وفي أى زمن ما يحيق بمن يكذب الرسل فكم من حضارات قامت في الأرض ثم بادت لأن أهلها كفروا بآيات ربهم وعصوا رسله . فأحاطت بهم خطاياهم وأهلكهم الله بذنوبهم .

﴿ كَذَّابٍ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۗ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾  
 ذَلِكَ بِأَنَّهُ لَمْ يَكُ مَغْرِبًا نِعْمَةٌ أَنْعَمَهَا عَلٰى قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغْرِبُوا  
 مَا بِأَنْفُسِهِمْ ۗ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾

(الانفال: ٥٢، ٥٣)

فالقصاص القرآنى - وهو الحق - آية للخلق فيه عبر وعظات وذكرى تنفع المؤمنين . وهو يخاطب الأجيال بما هو ماضٍ فى الخلق من سنن لا تحابى ولا تجامل ولا تتبدل ولا تتحول :

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ  
 دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ﴿١٠﴾

(محمد: ١٠)

والقرآن الكريم حين يذكر لنا قصص الأنبياء يبين لنا ما وقع بالمكذبين من أقوامهم لتحذر الأجيال أن تفعل فعلهم أو تسلك سبلهم ويرينا آثارهم قائمة بدونهم أو مدمرة مأخوذة بذنوبهم . وكل ذلك فيه من العبر والعظات ما فيه .

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ نَقِصُهُ عَلَيْكَ ۗ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ  
 ﴿١١﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلٰكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ۗ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ  
 آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ  
 وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْنِيبٍ ﴿١٢﴾ وَكَذَلِكَ أَخَذُ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ  
 الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۗ إِنَّ أَخَذَهُ إِلَّا شِدْدٌ ۗ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً

لَمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ

يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴿

(هود: ١٠٠ - ١٠٣)

ولذا فان القصص القرآنى - وهو الحق - له اثره البالغ فى تربية النفوس وإعدادها وتقويتها وتثبيتها على الحق . يخاطب به الرسول صلى الله عليه وسلم . أولا - وقد قصه الله عليه - فيثبت به فؤاده ويطمئن قلبه وهو يرى العاقبة للمرسلين والهلاك والدمار للمكذبين . ويؤمر الرسول بأن يتلوما أوحى إليه من كتاب ربه وأن يبلغ ما أنزل إليه . ويسمع المؤمنون ما أنزل إلى الرسول وهم يمرون بشدة أو محنة يرون فيها صلف الباطل وطغيان أهله - فتطمئن قلوبهم وتثبت على الحق وهم يعلمون أن العاقبة للمتقين وأن الدمار والهلاك للمفسدين .

ومعلوم أن كثيرا من هذا القصص قد أنزل على الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمون مستضعفون فى مكة يخافون أن يتخطفهم الناس . فانظر ما يؤديه هذا القصص وهو يتلى على النبى من أثر فى نفسه وفى نفوس أصحابه وهم يرون نتائج الثبات على الحق والتواصى بالصبر وما ينتهى إليه أمر اولئك المصرين على الكفر المستهزئين بأهل الإيمان . إنهم لازالوا فى فترة ضعف وأعداؤهم من الكافرين يتخذونهم سخريا وينالون منهم ويسطون إليهم أيديهم وألسنتهم بالسوء . وهم يؤملون أن يجعل الله لهم فرجا ومخرجا وهم فئة قليلة وعدوهم فى جمع كثير وما اعتاد الناس أن تنتصر القلة على الكثرة والضعف على القوة . فإذا علموا من القصص القرآنى - وهو الحق - أن أمر الله إذا جاء لا يتوقف على ما اعتاده الناس فقد تغلب فئة قليلة فئة كثيرة بإذن الله ، وقد تلد عجوزٌ وينجب شيخ إذا علموا ذلك - ازدادوا إيمانا وثباتا على الحق وهم يرون أن ذلك قد وقع على غير ما كانت تتوقع العجوز أن يكون .

وهى تقول - كما ذكر القرآن الكريم - وقد بُشِّرَتْ بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب -

﴿ ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾

﴿ ٧٢ ﴾ قَالُوا اتَّعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ

(هود : ٧٢ ، ٧٣)

أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مُجِيدٌ ﴿

لا عجب من أمر الله فقد تنتصر الفئة المستضعفة ويهزم الجمع ومشية الله نافذة وأمره كائن :

﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الاعراف : ٥٤)

عندئذ لا تشغل نفس المؤمن - هو يسمع ما أنزل إلى الرسول - بعداوة الأعداء وإنما تشغل بالأسباب التي تحقق الفوز وتجلب النصر .

وهذا ما خوطب به الرسول صلى الله عليه وسلم وأمر بتحقيقه في نفسه كما أمر به المؤمنون :

﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرُونَ مَا يوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلَّغَ

(الاحقاف : ٣٥)

فَهَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿

إعداد النفس هو الأصل فيما يطلب من فوز أو نصر . والنصر من عند الله وحده وما عند الله لا يطلب إلا بطاعته . وهو في حقيقة النفس لا في كيد العدو :

﴿ إِنَّ تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا

(آل عمران : ١٢٠)

إِنَّ اللَّهَ نِيْمًا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿

وهذا ما يوحى به القصص القرآني وهو يتلى على المؤمنين فيرون فيه عاقبة المحقين والمبطلين .

فقصة نوح عليه السلام يرى فيها الإنسان مقدمات الامور ونتائجها وهي دروس لا غنى للمؤمنين عنها .

نوح عليه السلام لبث في قومه زمنا طويلا . لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما . ومن بداية الامر قد أُنذرتهم وبين لهم العواقب والنتائج كما أمره ربه :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ۖ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٤﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٥﴾﴾

(نوح : ١ - ٦)

إصرار واستكبار قابلوا به دعوة نوح عليه السلام كلما دعاهم .

﴿ وَإِنِّي كَلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْصِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَأَسْتَكْبَرُوا وَسْتَكْبَارًا ﴿٦﴾﴾ (نوح : ٧)

هذا حالهم مع طول مكثه فيهم وصبره عليهم وتحذيرهم من سوء عاقبتهم لكنهم تمادوا في ظلمهم وطغيانهم فكان الجزاء : ﴿ فَأَخَذَهُم الطوفان وهم ظالمون ﴾ .

درس بليغ في تربية النفوس وإرشادها إلى الحق . وهي تعرف سنن الله في خلقه فتتبع سبيل المؤمنين وتجتنب سبل الضالين المكذبين . درس تبقى ذكره مع الزمن كله عبرة لمن يعتبر :

﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّذَكِّرٍ ﴿٧﴾﴾ (القمر: ١٥)

والقرآن الكريم حين يرينا هلاك المكذبين يرينا في الوقت نفسه نجاه المؤمنين وهم

في سفينة وعلى ظهر الماء الذي أخذ عدوهم - تجرى بهم في موج كالجبال والماء قد ارتفع مده وعظم موجه . يتابع أهل الكفر فيأتي عليهم ولو اعتصموا برعوس الجبال . ويؤانس أهل الإيمان ويبر بهم - وهم في رحمة الله - ولو جرت سفينتهم في موج كالجبال . والماء هو الماء يؤمر بإكرام ناس واغراق آخرين . وهو طائع مسبح بحمد ربه يحقق ما يؤمر به . فسبحان من له الخلق والامر . يأمر الماء فيأتي على من شاء اغرقه . ويحیی باذنه ما شاء حياته . ويصدر الأمر إلى الأرض بأن تبلع ماءها وإلى السماء بأن تمسك وتقلع . والكل مستجيب طائع لا ينبغي له أن يتأخر أو يخالف :

﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْمَأُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ  
وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بَعْدَ اللَّقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾

(هود : ٤٤)

هذه النتيجة التي ذكرت هنا من نجاة أهل الايمان وحسن عاقبتهم وهلاك أهل الظلم وسوء عاقبتهم تراها في سنن ماضية لا تتبدل ولا تتحول مع قوم هود ، وصالح ، وشعيب ، ولوط ، وموسى عليهم السلام ترى أقوامهم قد أخذوا بذنوبهم وهلكوا بمعاصيهم :

﴿ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا  
وَمِنْهُمْ مَن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ  
الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَن أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ  
وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

(العنكبوت : ٤٠)

وفي المقابل ترى النجاة والنصرة وحسن العاقبة لأهل الإيمان مهما طال الزمن :

﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ  
يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾

(غافر : ٥١)

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾

﴿ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ (الصفات : ١٧١ - ١٧٣)

وهذا ما تضمنته سورة هود عندما ذكرت هذا القصص وقصت علينا أبناء الرسل  
فقدمت لنا العظات والعبر وأرتنا ما في حياة الناس من سنن .

﴿ وَكَلَّا نَقْصُ عَيْتِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنشِئُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾

﴿ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (هود : ١٢٠)

والإشارة في قوله : ﴿ وجاءك في هذه الحق ﴾ . إلى السورة «سورة هود» أو إلى  
الأنباء . ( أنباء الرسل ) . وكل ذلك حق وصدق . وبالحق وحده تكون التربية  
ويكون الإعداد . وبالحق تثبت القلوب وتطمئن النفوس . وبالحق تحسن العواقب لمن  
تمسك به وتسوء لمن خالفه أو أعرض عنه .

ومن سورة هود إلى سورة يوسف لنرى العواقب والنتائج لمن تمسك بالحق واتقى  
ربه وصبر ولن أثر الباطل واحتمى بالكذب والمكر والكيد . نرى كيف بطل الكذب  
والكيد وظهر الصدق والحق . لان الحق ثابت مستقر لا تزعجه عواصف الباطل ولا  
تجذب نوره ظلمات الكيد والمكر . فمن كذبت من قبل وكادت ليوسف عليه السلام  
هى التى قالت : ﴿ الآن حَصْحَصَ الْحَقُّ ﴾ . أى ثبت واستقر وتلاشى كيدها . ومن  
جاءوا على قميص يوسف بدم كذب جاءوا به الى والده ليقنعوه بان الذئب قد أكله .  
هم الذين وقفوا بين يديه طالبين يقولون له :

﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ

مُرْجَلَةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي

الْمُتَّصِدِّقِينَ ﴾ (يوسف : ٨٨)

ولما أذهلتهم المفاجأة حين :

﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾

(يوسف : ٨٩)

وعلموا أنه يوسف حين قال لهم : ﴿ أنا يوسف وهذا أخى ﴾ . ما كان منهم إلا أن أعلنوا مقسمين أن الله فضله عليهم وأعزه وأذلهم بالوقوف بين يديه :

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكُ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا

لِخَاطِئِينَ ﴾

(يوسف : ٩١)

وانتصر الحق وبطل الكيد :

﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقْ وَيَصْرِفْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ أَجْرَهُ

الْمُحْسِنِينَ ﴾

(يوسف : ٩٠)

ومن قبل قالت امرأة العزيز إن يوسف على الحق وهى على الباطل حيث قالت قبل أن يخرج من سجنه . ﴿ الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ﴾ . قالت ذلك دون تأثير عليها أو إغراء لها لأن سلطان الحق أقوى من أن يختنفى فى زبد الباطل . وهذا ما أراده يوسف قبل أن يخرج من سجنه حين جاءه الرسول من قبل الملك . ﴿ قال ارجع الى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم ﴾ . فكانت الإجابة منهن فى جانب الحق وكان الاعتراف منها قاطعا لكل مقال وانتصر الحق وتلاشى الباطل ولم تفده سجونه وما احتفى به من قوة الملك والسلطان .

بل رأينا الملك يستخلفه لنفسه ليخرج من سجنه أمينا على خزائن الارض بعد أن كان سجيناً . ويوسف عليه السلام يعرف فى جميع الأوقات والمواقف التى مرت به أن اعتصامه بالله هو السبيل لدفع الكيد ورفع الظلم وحسن العاقبة وذلك هو سلاح الحق الذى انتصر به . وقال لابييه تحدثا بنعمة ربه :

﴿ وَقَالَ يَا بَنَاتِ هَذَا أَوَّلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا

وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِّنَ

الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي

إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿ (يوسف : ١٠٠)

وترى يوسف مع تقلب الأحوال ثابتاً على الحق يطلب من ربه أن يمن عليه وأن يلحقه بالصالحين :

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ

فَاطَّرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿ (يوسف : ١٠١)

أليس في ذلك كله عبرة لاولى الالباب ؟ وأى عبرة أعظم من أن نرى العواقب والنتائج في جانب الحق دائماً وإن ضعف أهله أو قل جنده .

﴿ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ

حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَٰكِن تَصَدِّقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ

وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿

(يوسف : ١١١)

حديث الحق هدى لمن يؤمن بالحق ورحمة لهم أما الذين يتبعون الباطل فلا يزيدهم إلا خساراً .

﴿ طَسَمَ ۙ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿ نَتَلَوُا عَلَيْكَ

مِنْ نَّبَأِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿

(القصص : ١-٣)

ونبأ موسى وفرعون الذى قصه الله علينا فيه دروس للأغنياء والفقراء . للمتكبرين والمستضعفين . للحكام والمحكومين . للكبار والصغار . للرجل والمرأة . قصة تنفذ إلى أعماق النفس بما فيها من دلالات وعبر . وفي جميعها ترى عمل القدرة الالهية .

والعلم المحيط بكل شيء . فان هلاك فرعون ومن معه لم يتم بجيوش يصارع بعضها بعضا . وإنما تم بأخذ من الله وإهلاك منه - وفرعون في قمة كبره وصلفه وتسلطه وبغيه :

﴿ وَأَسْتَكْبَرُ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يَرْجِعُونَ ﴾ ﴿٣٦﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فأنظركيف كانت عاقبة الظالمين ﴿٣٧﴾ وجعلناهم آية يَدْعُونَ إِلَى الْكَارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٣٨﴾

(القصص : ٣٩ - ٤١)

وتأمل وأنت تقرأ : ﴿ فأخذناه وجنوده ﴾ . ﴿ فنبدناهم ﴾ . ﴿ وجعلناهم ﴾ . تراها جميعا ضمائر العظمة وأفعال العلى القدير . وتذكر معها ما كان يقوله فرعون قبل أخذه وهلاكه :

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَنُ عَلَى الطِّينِ فَأَجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأظنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾

(القصص : ٣٨)

ونجاة موسى عليه السلام ومن معه لم يتم بتهيئة أسباب من جانب موسى ولو بصنع سفينة كما أمر نوح عليه السلام . ولم تقع مقاومة من جانب قومه حين وصل فرعون بجنده وتراءى الجمعان بل قالوا لموسى - وقد رأوا البحر أمامهم والعدو الباغى من خلفهم - إنا لمدركون :

﴿ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ ﴿٦٤﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ

بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾  
 وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأُنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾  
 ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ

مُؤْمِنِينَ ﴿﴾ (الشعراء : ٦١ - ٦٧)

وتدبر أيضا الضمائر : فأوحينا . وأزلفنا . وأنجينا . ثم أغرقنا . تراها كلها ضمائر العظمة وأفعال العليم القدير في إهلاك هؤلاء وإنجاء أولئك . وكل ما فعله موسى أن نفذ أمر الله في ضرب البحر بعصاه . وما ذا تفعل عصا موسى بالبحر حتى ينفلق ويكون كل فرق كالطود العظيم إنه عمل القدرة الالهية وأمر الخلاق العليم :

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾

(يس : ٨٢)

وحفظ موسى في ولادته وإرساله إلى فرعون في صندوق يحمله الماء والوحي لأمر موسى أن ترضعه فإذا خافت عليه ألقته في اليم ووصله إلى هناك والتقاطه من آل فرعون . كل ذلك لم يكن بتدبير بشر - وما كان لهم أن يستطيعوا ذلك لو أرادوا - وإنما كان بتدبير العليم القدير :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تخَافِي وَلَا تحزني إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَالْقَطْعُ هَؤُلَاءِ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾

(القصص : ٧ ، ٨)

وتدبر الضمائر : وأوحينا . إنا رادوه اليك . وجاعلوه . تراها ضمائر العظمة وهي تعود إلى الله عز وجل . ومن ذا الذي يلقي ابنه في اليم ولا يخاف ولا يحزن ؟ . ومن ذا

الذى يعلم ما فى قلب الأم فيلقى بالطمأنينة إليه ويربط عليه ؟ إنها العناية الالهية .  
والحفظ الالهى . ومن حفظه الله لا يضيعه الناس :

﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ۖ ۞٣٨ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِيفِيهِ  
فِي آلِيهِ فَلْيَلْقِهِ آلِيهِ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَهُ ۗ وَالْقَيْتُ  
عَلَيْكَ مَحَبَّةٌ مِّنِّي وَلِنُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ۙ ﴾

(طه : ٣٨ ، ٣٩)

وها نحن نرى امرأة فرعون تقف موقفا لا يمكن أن يكون من عند نفسها وإنما هى  
المحبة التى القيت من قبل ربها لترد عنه سكين الذابح فى عام يذبح كل مولود يولد من  
بنى إسرائيل :

﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ  
أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۙ ﴾

(القصص : ٩)

وموسى نفسه - وهو الرضيع الذى ينشد الرضاع - من الذى جعله يصد عن  
المرضع ولا يقبل أى ثدى يقدم إليه . حتى يعود إلى أمه مكرما معززا فترضعه مكرمة  
معززة وتأخذ أجرا .

﴿ وَقَالَتِ لِأُخْتِهِ قُصِّيه فَبَصُرَتْ بِهِ ۖ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا  
يَشْعُرُونَ ۙ ۞١١ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ  
هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ  
نَاصِحُونَ ۙ ۞١٢ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ آتِيهِ ۚ كَىٰ تَقْرَعِيهَا وَلَا  
تَحْزَنَ ۚ وَتِلْعَمَأَنَّى وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ  
لَا يَعْلَمُونَ ۙ ﴾

(القصص : ١١ - ١٣)

وتدبر الضمائر : وحرمانا . فرددناه . إنها ضمائر العظمة الالهية . وأفعال الخلاق العليم الذى وعد بحفظه ورده وجعله من المرسلين . ﴿ إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ﴾ .

﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَىٰ تَقَرَّعِينَهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(القصص : ١٣)

ذاك من نبا موسى وفرعون الذى قصه الله علينا على ما كان عليه وكأنه حاضر أمام أعيننا نشاهده لا يحجبه عنا بعد زمان أو مكان وسبحان من أحاط بكل شيئا علما .

﴿ تَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَأِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

(القصص : ٣)

والمؤمنون وحدهم هم الذين ينتفعون بما فى هذا القصص من عبر وعظات وهو محفوظ بحفظ الله فى كتاب لا يأتبه الباطل من بين يديه ولا من خلفه يبصر الناس ويعلمهم سنن الله فى خلقه وما يجب ان يكونوا عليه فى جميع شؤونهم من معرفة الله وخشيته . ويحذرهم من الذنوب والآثام ويربهم عاقبة الظلم ومصارع الظالمين .

قصة ترى فيها الوليد الرضيع وترى فيها الأم تحشى على رضيعها فى وقت يذبح فيه كل مولود من بنى اسرائيل . وترى أخت الرضيع تتحرك فى هذا الجو المشحون بالفرع والرعب . وترى آل فرعون وهم يحملون الرضيع إلى امرأة فرعون ويطوفون به للبحث عن مرضع يقبل ثديها ولا يستقرون حتى يعود إلى أمه وهم لا يشعرون . وترى فرعون بتدبيره وحرصه وبغيه خادما بملكه لهذا الرضيع وهو لا يدري أن الوليد الذى خافه على نفسه يأتبه ليربى فى قصره يحفظ برعاية الله ويصنع على عينه . ونرى امرأة فرعون فى هذه القصة مثلا حيا من بداية أمرها إلى نهايته مثلا حيا للمؤمنين وترى العواقب والنتائج فيخشع قلبك للحق الذى جاءت به آيات ربك ودعت إليه . وحيثما كنت وعلى أى حال كنت فلك فيها عظة وتبصرة .

إنها قصة تنفذ بعبرتها الى أعماق النفس فتثد الشر قبل أن يولد وهي ترى عاقبته ومصراع أهله . وتنفذ إلى قلب المستضعف فتعلمه كيف يستمسك بمرضاة ربه وهي تريبه منة الله على المستضعفين في الأرض فتجعلهم أئمة وتجعلهم الوارثين . وتنفذ إلى قلب الأم المفزعة بالبغى والظلم والتسلط فتعلمها كيف تلجأ إلى الله وتعتمص به وهي ترى أم موسى تحاط بحماية ربانية في أشد لحظات الفرع والظلم والتسلط . تَطْمِئِنُّ قلبها وتحفظ وليدها وتعيده إليها لترضعه بأجر وتكريم وتُحوّل المتسلطين إلى خَدَامِين .

قصة تنفذ إلى قلب الحكام حيث كانوا فتعلمهم أن مافي أيديهم يهدده طغيانهم وتبيده معاصيهم وتعصف به ذنوبهم وهم بذلك يؤخذون ويهلكون :

﴿ كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ<sup>٦</sup> وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

(الانفال : ٥٢)

﴿ كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ<sup>٦</sup> وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَاهُ آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلَّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾

(الانفال : ٥٤)

قصة تنفذ إلى قلوب المحكومين فتعلمهم أن طاعة الحكام في معصية الله تسوقهم معهم إلى الدمار والبوار :

﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ، فَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ<sup>٥٤</sup> فَلَمَّاءَ اسْفُونَا أَنْقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ<sup>٥٥</sup> فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴾

(الزخرف : ٥٤ - ٥٦)

قصة تعلم كل إنسان أن ينظر إلى العواقب فيحسن المقدمات ولا يسيء . ولا يقف عند الرغائب فيركن إليها وينسى سوء عاقبتها .

قصة تعلم الجميع أن بساط دنياهم سيطوى وأنهم قادمون على دار البقاء ولا أمن لهم فيها إلا بصدق الإيثار واستقامة السلوك :

﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا ءِيمَنَهُمْ بِظُلْمٍ ءُوَلِّتِكَ لَهُمُ ءَالَمًا  
وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾

(الانعام : ٨٢)

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ  
الْمَلَائِكَةُ ءَلَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ  
الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾

(فصلت : ٣٠)

وإذا انتهت فترة الحياة الدنيا لم يبق للإنسان فيها إلا ما ترك وراءه من ذكر حسن أو قبيح . يذكر به في الناس فيدعون له . أو يسخطون عليه . لقد مضى فرعون بلعنات الدنيا وعذاب الآخرة . وطوى بساط ملكه كأن لم يكن . وانتقل ما ادعاه لنفسه وهو يقول : ﴿ أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي ﴾ . انتقل إلى من استخلفهم الله من بعده لينظر كيف يعملون . وسينتهي ميراث الأرض ومن عليها لله الواحد القهار : ﴿ إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون ﴾ . ولقد بقيت امرأة فرعون بذكرها وطيب سيرتها وصدق إيمانها مثلاً للمؤمنين :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ  
قَالَتْ رَبِّ ائْتِنِي بِعَنْدِكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ  
وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾

(التحریم : ١١)

أما موسى عليه السلام الذي استهدفه فرعون من قبل ولادته فقد اختاره الله رسولا من المرسلين وجعل الإيثار برسالته أصلا في الإيثار بجميع المرسلين .

﴿ لا نفرق بين أحدٍ من رسله ونحن له مسلمون ﴾ . فمن كذب رسولا منهم فقد كذب المرسلين . ومن بداية الأمر إلى نهايته ترى الحق وحده هو الذى بقى فى حياة الناس ومكث فيهم وذهب الباطل جفاء - زهق كلما بدا - فى كل حين .

والقرآن المجيد يرينا كل ذلك ليُعلم ما للحق من ثبات وبقاء وما فى الباطل من غثاء وجفاء حتى لا يركن أحد إلى باطل أو يستبطىء أحد نصرة حق . فإن الله لا يعجل بعجلة أحد فالباطل زاهق لا محالة . ومن اتبعه زهق معه .

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَيْنَا مِنْ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ ﴾

(محمد : ١ - ٣)

وما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم وما تلى عليه من نبأ موسى لم يأت به من عند نفسه ولا علم له به من قبل :

﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

(القصص : ٤٤ - ٤٦)

ان الحديث عن نبأ موسى جاء فى القرآن الكريم مفصلا من أحداث ولادته ونشأته وتوجهه تلقاء مدين وهجرته ومناداته من شاطىء الوادى الأيمن ويعثته . وإرساله إلى فرعون وملته وما قاله له وما وقع منه وما انتهى اليه . كل ذلك يتلى على النبى صلى الله عليه وسلم ليكون للأجيال من بعد وحيا محفوظا لا ينقطع . وإنذارا لا يتوقف . وبيانا ثابتا لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه . حتى غدونا بنور القرآن مع

الزمن كله نبصر الوقائع ونرى الحقائق وننظر السنن ونأخذ العظات والعبر.

وهذا البيان الذى يتلى على النبى الكريم صلى الله عليه وسلم ليبلغه للناس - شاهد برسالته وأن ما بلغه للناس قد أنزل عليه من ربه . فما كان صلى الله عليه وسلم حاضرا المكان الذى أوحى الله فيه إلى موسى ولا كان من جملة الشاهدين للوحي إليه . بل هى القرون الكثيرة أنشأها الله بعد عهد الوحي . فتناول أمد انقطاع الوحي على القرن الذى بعث فيه النبى فأرسله الله رحمة للخلق وعلمه ما لم يكن يعلم وقص عليه من أبناء الرسل . فانقطعت بإرساله الحجة وبطلت المعذرة وتبين الحق من الباطل .

ومن تدبر أمر هذا القصص أخذ من كل شىء درسا يهديه إلى ربه وعبرة يخاطب بها نفسه ليردعها عما ترغب وتسوء عاقبته . ويردها إلى ما يحق لها وتحسن عاقبته .

ولا شىء يؤثر في إعداد الناس وتربيتهم كالعبر التى تؤخذ من العواقب والعظات التى تستنبط من الواقع .

ومن علم أن الله سننا في خلقه لا تحابى ولا تُجامل ولا تتبدل ولا تتحول اتبع السبيل التى توصله لرضا ربه وتجنب السبل التى تبعده عن سبيله وتوصله إلى سخطه وغضبه .

ومن أيقن أن وعد الله حق صَبَرَ وَصَابِر . واعتصم بالله في جميع أمره وأخلص له قصده وعمله واستمسك بالحق وثبت عليه واستعان بالله وحده حتى لا يستخفه أهل الباطل أو يستدرجه دعائهُ أو يستفزه شياطينه .

ومن تدبر القرآن الكريم - وهو يقص علينا أحسن القصص - علم أن الباطل قد يستدرج وتفتح له أبواب كل شىء فيفتن به من يفتن ثم لا تلبث النتائج أن تأتى مصححة للمفاهيم بحيث ترى الذين فتنوا بزينة الباطل يقولون - حين رأوا مصيره - لولا أن منَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بَنَّا وَمَكَانَهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ . بل ترى فرعون نفسه حين أدركه الغرق يقول : ﴿ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ .

وهكذا لا ترى للباطل ثباتا ولا بقاء . بل تراه يزهد بالحق . وترى الحق منتصرا حتى في نفوس أولئك الذين خُذِعوا بالباطل وهم يعلنون إيمانهم به عندما تحدد المصائر وتظهر النتائج ويحق الحق ويبطل ما كانوا يفتنون به ويعملون له .

والقرآن الكريم - وهو يرينا النتائج والعواقب - يجعل ذلك آية للأجيال كلها وإن غفل كثيرٌ من الناس عنها :

﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنِ أَيْنَ نَأْتِيهِمُ الْمَوْتُ ﴾ (يونس : ٩٢)

ومع الغفلة يجد الباطل مدخلا إلى النفوس فيلهيها بالمتاع ويفتها بالزينة وينسيها ما هي مقبلة عليه فتؤخذ بسنة الأولين وتكون مثلا للآخرين . . تذكرة لمن اتقى وعبرة لمن يخشى . ويطوى جيل ويأتي جيل . والحق الذي يخاطب به الناس هو هو لا يتبدل ولا يتغير والآيات قائمة والعبر ماثلة . والأشياء بقيمتها لا بزینتها والامور بعواقبها لا بمقدماتها :

﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعَدَّ أَحْسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَنَعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ (القصص : ٦٠ ، ٦١)

